۞ ملامـــح تيسير الفقه المالكي من خلال المنظومات الفقهية [الألفية الفقهية] نموذجا

✍ الأستاذ / مبروك زيد الخير

أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها

-جامعة الأغواط-

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد، أذن الحق التي استمعت آخر إرسال السماء لهدي الأرض، ولسان الصدق الذّي بلغ عن الحقّ مراده من الخلق.

وبعد ...

أيها العلماء الأجلاء...

أيُّها الضيوف الكرام...

أيها القائمون على هذه المبادرة الطيبة خاطرا و فكرة، ووسيلة لكلّ غاية نبيلة...

إن الإيغال في مثل هذا المبحث الذي توخيت مرماه، ولخّصت في هذه المحاضرة فحواه، منوط بضرورة انفساح الفرصة زمانا، و استقراء الهوادي والخوافي تعمقا وفهما، وتنوع المصادر والمراجع والرؤى تدقيقا وضبطا، مما لا ينفك عنه مبحر في لجة، ولا باحث عن حجة، غير أن المجال دون ذلك ضائق، وما لا يدرك كله، لا يترك جله.

وقد بلوت – بعون الله – غوره، وجلت بهذا البحث المتواضع عبره، فوجدته طاميَّ العباب، واسع الرحاب، وإن غاص فيه من كرام المؤلفين السفره، من الذين قضّوا أعمارهم ما بين الحلقة والمحبرة، فأحاطوا ببعض جوانبه بحثا وتنقيبا، وبقيت جوانب منه عذراء لم يمسسها بشر.

وطبيعي أن تتأبّى النتائج الكلية للبحوث على الإلمام الشمولي، والإحاطة الجامعة المانعة، لأنها في مجملها معالم للدين، ومباحث للشريعة التي هي من كلمات الله التي لا تنفد أبدا [1].

وانطلاقا من قول الإمام (ابن دقيق العيد) الذي أكد دوما على مبدإ التواصل والاستمرارية في التبليغ والعطاء، حين قال بحصافة ودقة بصر : « والأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، والأمة الشريفة لا بدّ لها من سالك إلى الحق على واضح المحجّة، إلى أن يأتي اللّه بأشراط الساعة الكبرى » [2].

فإن المدد العلمي والروحي ينفي ما يسميه صاحب (فواتح الرحموت في شرح مسلم الثبوت) ظاهرة (الخلوّ)، لأن الله ضمن لدينه حفظا ودواما، مما ماجت به العقول، وضمته النقول، وتجسد في المكتبات العظمى التي ما إنّ مفاتحها لتنوء بالعصبة أولي القوة.[3]

وإنّ ذلك الموروث الخضم نتاج استثمار لما سماه [الدكتور محمد الصغير بناني]، الوظيفة التذكيرية[4]، التي استمدّت روحيتها، وملمحيّة التجديد فيها من القرآن الكريم و السّنة العطرة .

والتصور الأمثل لتطور وتوسع وانتشار المذهب المالكي، إنما ينطلق لا محالة من تصور مبدئي لتطور الفقه الإسلامي عموما، فقد كانت الفترة المكية فترة للتأسيس العقائدي، وترسيخ مبادئ التشرب الإيماني، على خلاف الفترة المدنية، التي شهدت إرساء الأحكام التشريعية، و تجسيدها قولا وعملا وتقريرا، من طرف المجتهد الأعظم بأمر الله، والذي اصطنعته العناية الربانية على عينها، ليكرّس تطبيقيّة الوحي، ويحقق إسوية العمل، كنور متقلب في الساجدين يمدّ أسباب الهداية، ويعطي معالم اليقين

والقبول، ثم ما لبث أن خلف من بعد الأجيال الذهبيّة أخلاف، حافظوا على الصّلاة، وزهدوا في الشّهوات، ونذروا أنفسهم للعلم وَعْياً وحفظا ونقلا، أو لنقل إنّهم خلف ورثوا الكتاب[5]. فكانت مرحلتهم بحقّ فاتحة استشراف طموح لعوالم الاجتهاد اللامتناهية.

وطبيعي أن تتطور الحضارة الإسلامية، بعد الفتح الومضي، والتوسّع الخارق الذّي تمخضّ عنه انضمام ممالك كسرى و قصور بصرى، إلى حاضر الإسلام، ممّا طوي فيه الزّمان كطي السّجل للكتاب، وانقصت رقعة الكفر من أطرافها، فإذا الحضارة الإسلامية في ذروة التّألق تسمو إلى عوالم أرحب فكرا ومجتمعا وتشريعا، ومن الطبيعي آنئذٍ أن ينفتح الفقه على تصورات مستجدّة لابد له من توظيفها وتمثلها، ومشاكل تفيض على الفكر العقائدي و الفقهي تتعلق تراكميا بالنوازل، التي تزاحمت على مستوى الطرح الاستفساري الاستقرائي لتتطلب أجوبة تحسم مفارقات الاشكال، وتزيل ملامح التناقض فيها، للانتقال بعدها إلى متناولات استحداثية تتماشى مع الجديد.[6]

لقد صار الفقه ملزما بمواجهة أحداث الحياة وتطوّر المجتمع الاسلامي من البساطة الفطرية، إلى التعقيد المستحدث، نتيجة الانفتاح على الآخر ، وذلك ما حتم انبثاق المدارس الفقهية، التي مثلها أهل الحديث، وهم أهل الحجاز كمالك و الشافعي والثوري، و ابن حنبل، والظاهرية من جهة ، وأهل الرأي كأبي حنيفة و من والاه[7] ممثلين للتيار المقابل من جهة أخرى .

وقد أشار صاحب (إخلاص الناوي) [8] إلى أهمية ما أنيط بكاهل الصفوة العلمية، من التكليف الكفائي الذي نفرت له طائفة من الأمة، وتحملت مسؤوليته عن يقين

ووعي، أخذا بقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[9]، فيقول نقلا عن كتابه المنوّه به سلفا : « لما كان الفقه هو العلم النّافع، والصّراط المستقيم الذي شرعه الشارع ونصّ على أنّ كلّ عمل عمله العبد على غير سنّته ضائع، اشتغل به الخواصّ من عباد الله... حتى أشرقت شموسه و تكاملت أقماره، وانتشرت في أقطار الأرض آثاره»[10].

وذكر صاحب (أنوار التنزيل و أسرار التأويل) في معرض تفسيره لآية [سورة التوبة] السالفة، «أن الغاية من النفرة للتفقه إنما هي تكلف مشاق الفقاهة في الدين، وتجشم مشاق تحصيله، رجاء أن يستقيم صاحبها و يقيم»[11]، وهذا المطمح النبيل هو الذي حدا بالعلماء أن يتجردوا لهذه الغاية، ويبذلوا وسعهم فيها في إطار الاختلاف الراشد المبرر واقعا وهدفا.

ولعل السبب في اختلاف الفقهاء المجتهدين بعد عصر النبوة الموحى إليها، والتي رست التشريع، ووضعت معالمه، إنّما يرجع إلى الاختلاف في المصادر التشريعية المعتمدة، كنبع للاستقاء، وفي ثبوتها كمصادر، وفي اختلافهم في الترجيح عند التعارض، وأنواع الدّلالات، ثمّ في تفاوتهم في الفهم وملكة الاستنباط، وكمال الذّوق الفقهي، وإلى ذلك أشار (الشاطبي) و(ابن حزم) من اللاحقين[12].

والاجماع منعقد على أن الإمام مالكا قد كان من هاته الثلّة التي رسمت التأسيس الفقهي منذ بداية التنظير وابتداء الترسية والتقعيد، لقد جمعت الكتب تفاصيل حياة الإمام مالك فأوعت، ولم تترك من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها، فقد كان بحقّ سيّد عصره، وأحدوثة دهره، لهجت بذكره البلاد، وضربت لعلمه الأكباد، وأوتي

الحكمة ومفاتيح الفهم والتبصر، فكان بحقّ نموذجا رائعا للعبقرية الإسلامية في أوج التنامي الحضاري، فقد اصطنع على عين العناية الإلهية صبيا، فنشأ نشأة سامية المقصد علمية التحصيل، ربانية التوجّه، فجمع المحامد من أطرافها، ونال الإعجاب، فاشأربّت لمجلسه الرقاب وحظي بالرضا و القبول في كلّ البلدان و الأزمان، ممّا لم يتأتّ لغيره.[13]

ويذكر مترجموا حياته أنه كان المجدد القدوة، و العبقريّ الفذ، ممّا تميّز به وزاده رفعة وسموا، وجذب إليه من مختلف الأقطار تلامذته وروّاده، وما تصدّر للفتوى والمشيخة حتى أقره الشيوخ، ورضي عنه خلاصة السّلف الصالح ، وبقيّة التقاة الثقات، وأجازه منهم مائة و في رواية سبعون ، وأكد الشيخ محمد أبو زهرة ذلك بقوله : «نشأ مالك في ذلك الوسط العلمي غلاما حافظا متقنا، وبرا تقيا، في معدن العلم و الآثار، وأخذ العلم عن نحو مائة ».[14]

وهذا التنوع في التلقّي يعطي صورة ناصعة عن الاقتباسية الممدودة إلى ذلك الإشراق العلمي النواري، الذي يحمل رايته أولئك الأفذاذ العباقرة من جيل التابعين الأخيار، وبذلك تمكن الإمام مالك من تجميع العلم من منابعه ليصبّه رائقا سلسالا في معين العطاء الرباني، الذي خُصَّ به من الفكر والفهم والتألق الذهني، مع ما يحفّه من تقوى و تثبت و تواضع، وذلك كلّه ممّا أفاء الله به على هذا الإمام. فرفع به ذكره، فكان ما عبر عنه الأستاذ أمين الخولي (بالإشراقية) التي هيّأته حالا و مقالا ليسير على قدم النبوة، بفهم صائب، وإدراك عميق لمقاصد الشريعة، الغراء التي حمل مشعل علما وإمامة وتقنينا في الفقه ومسالك الحياة، وقد كان صادقا في مقولته الشهيرة: «العلم نَفُورٌ لا يأنس إلاّ بقلب خاشع »[15]، ولو لم يرد في فضله إلاّ مقولة تلميذه الإمام الشافعي الشهيرة : « مالك أستاذي وعنه أخذت العلم، وهو الحجّة بيني و بين الله

تعالى، وما أحد أمنّ عليّ من مالك، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب» [16]، لكانت كافية في تزكيته و تبريزه .

المبررات الموضوعية لمنحى انتشار المذهب ورسوخه قبل عصر المنظومات :

إن أهمّ عامل لانتشار مذهب مالك ﷺ هو مالك نفسه، الذي تنسم فيه العام والخاص هيبة العلماء، وسرّ الأولياء، ونفحة الملهمين، وورع السالكين، وفقه المتثبتين، فالمطنب في وصفه مقصّر، والمسهب في مدحته مقتصر؛ قال (سعيد بن هند الأندلسي): « ما هبت أحداً هيبتي عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة، صغرت معها هيبة ابن معاوية ». [17] وقال أحد معاصريه : دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس و اللحية، والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد هيبة له. [18]

وفي هذا يقول الشاعر :

أَبَى الجَوَابَ فَمَـــا يُرَاجَعُ هَيْبَةً ... وَ السَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَـــانِ

أَدَبُ الوَقَـــارِ وسرّ سُلْطَانِ التُّقَى ... فهُوَ المُطَاعُ وَلَيسَ ذَا سُلْطَـــانِ [19]

وجدير بمن هذا حاله أن يسلم النّاس له القياد في أمر الدين ، فَيَحُلّ في تلك المرتبة المكينة، ولا يتجرّأ أحد على الفتوى و هو بالمدينة، ويجسد هذا الملمح ما روي عن النبي ﷺ في قوله : «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة » [20]

ب– وأمّا العامل الثاني الذي يوعز له الانتشار فهو كتابه الجليل، الذي جمع بين الأثر والنّظر، واعتبر أقدم كتاب في مكتبة التراث الإسلامي الزّاخر، وقد أنفق فيه

الإمام تأليفا و تمحيصا وتصحيحا نصف عمره، في أربعة عقود من الزمان العامر، والموطأ هو الدرر اليسير مما رواه الإمام مالك ووعته ذاكرته، ولكنّه الآكد والأقوى متنا وسندا، والفضل في صحّته ووثوقه يرجع إلى منهجية التأليف الدقيقة المحكمة، وقد روي قول الشافعي فيه: «ما رأيت كتابا ألف في العلم أكثر صوابا من كتاب مالك».[21]

وقد جمع في موطئه بين جرح السند وتعديله، ونقد المضمون و تصويبه، جاعلا عنصر الفقه والعمل للنّقد، مما يعتبر ريادة في هذا المجال، فتنقد السّنة السّنة ، وينقد الفقه الفقه، كما يؤكد ذلك الشيخ (محمّد الفاضل بن عاشور).[22]

ج – أنّ المسايرة الفقهية للواقع، والأخذ بما أسماه الإمام مالك عمل أهل المدينة، يعتبر عنصرا هاما في وظيفية الفقه التي تمتح من المعاينة والممارسة المنقولة جيلا عن جيل، فقد اعتمد على أحاديث لا ترقى إلى درجة الصحيح، ولكنّ العمل و المعنى الصحيح يؤازرانها، فارتقى بها ذلك إلى درجة الوثوق، وإن تكن من حيث المتن غير بالغة درجة الصحيح في بعض الأحيان.[23]

د – العامل الآخر المهمّ في هذا السّياق هو قدسية و روحانية الإشعاع للمذهب، الذي تمركز في مدينة رسول الله ﷺ وهي بيئة تحمل القداسة في نفسيات المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، وكلّ ما جاء منها من علم، اعتبر نفحا ربانيا، يسيل نورانية، وينعكس إشراقا، آخذا من مشكاة النبوة السّاطع،بحكم المجاورة والالتصاق، والحضور الروحي والواقعي هناك .

ه – قرب العهد بالنبوة مما يسهل عملية التّواصل المعرفي والنقدي لمضامين المرويات والمنقولات متنا وسندا، وذلك بمعايشة الذين اغترفوا من المعين الصافي، خاصة وأن

السلسلة الذهبية في الرواية التي انفرد بها الإمام مالك، كانت بحق توثيقا لماعا لا تنفصم له عروة للتلقي المباشر من الناقلين الثقات، ومعالم وآثار النبي و الخلفاء الراشدين، لا تزال إلى عهد مالك تعبق بشذى الهداية، وتفوح بأريج البلاغة والوحي والنور، ورحم الله محمد بن عمار الكلاعي الميورقي ت[853 هـ] حين يقول:

وَكُنْ فِي ذِي الْمَذَاهِبِ مَالِكِيا ... مدينيا وَسُنِّيا مَتِيْنَا

نَظَرْنَا فِي الْمَذَاهِبِ مَا رَأَينَا ... كَمَذْهَبِ مَالِكٍ لِلنَّاظِرِيْنَا

وَمَذْهَبُهُ اتِّبَاعٌ لاَ ابْتِدَاعٌ ... كَمَا اتَّبَعَ الْكَرِيْمُ الأَكْرَمِيْنَا

وعندي كل مجتهد مصيب ... ولكن مالك في السابقينا

وقدْ دل الدليل على صواب ... يقول به لدى المتحققينا[24]

و – وجود الإمام مالك في عهد الانطلاق الفكري والعقائدي الذي فرضه واقع انفساح الفتوحات، وتوسع رقعة الدولة ،وامتزاج الحضارات ،وترجمة العلوم والفلسفات والعقائد من مختلف الملل والنحل، وانهيار الدولة الأموية العربية، وقيام الدولة العباسية المدعومة بغير العرب، مما برز مجهود الإمام مالك ذي الخط العقائدي الأصيل، والفكر المعتدل المتوازن آنئذ .

ولقد تنوع حفاظ الموطأ، وكثر المشتغلون به ممن جعلوه صحفا منشرة، يتدارسونها ويتلونها فيما بينهم، وهم فلذات أكباد البلدان القاصية، والقارات النائية، فانتشر مذهب مالك بذلك، في كل بلدة وقرية، وفي كل مشرق للأرض أو مغرب.

ولا غرابة أن تجد من رواته أبا عبد الله بن القاسم، و عبد الله بن وهب بمصر، وعلي بن زياد التونسي بتونس ، وعيسى بن دينار القرطبي، وأسد بن الفرات الخراساني النيسابوري أصلا وفاتح صقلية الذي مات في سرقوسة عام [213 هـ]، ومثلهم أشهب وأصبغ و الليثي وسحنون وابن اسحاق القاضي وابن الماجشون وغيرهم في المغرب و الأندلس.

ز – يظهر أن الخلفاء الذين أوعزوا إلى مالك ﷺ بوضع كتابه، وخاصة منهم المنصور والرشيد، لم تكن نيّتهم جمع الحديث فقط، إذ ظهر هنالك مشاهير في رواية الحديث وتمحيصه، بل كانت متجهة نحو جعل كتب الإمام أساسا لقانون في الفقه تحكم به الخلافة، ويتطور مع الزمان، وربما يكون مردّ ذلك إلى الضجر والسآمة من الصرّاع والاختلاف اللامتناهي، الذي ضايق الراعي، كما ضاقت به الرّعيّة، على أن يسلك فيه مسلكا من التسيير والتسهيل والتوطيء.[25]

قال صاحب [حلية الأولياء] ابن نعيم نقلا عن مالك ما يلي: «شاورني الرشيد في أن يعلق الموطّأ بالكعبة و يحمل الناس على ما فيه، فقلت لا تفعل، فإنّ أصحاب رسول الله ﷺ اختلفواْ في الفروع وتفرقوا في البلدان وكلّ مصيب».[26]

ح – الميول التي أبداها بعض ولاة وقضاة وأمراء الأمصار للمذهب، وكان لهم الفضل في توحيد العمل الفقهي بالمذهب فرسّموه في البلدان والمدن التي تدين لهم بالولاء، فخلفاء الأندلس وسلاطين أغلب دويلات المغرب العربي أسهمواْ بقسطهم الوافر في تغليب مذهب مالك وتبريزه، وضمان المناخ الملائم لتوسعه وبقائه وتناميه، قال (ابن خلدون) : «وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله ».[27]

وقد أوعز الإمام (محمد أبو زهرة) ذلك الانتشار إلى التقاء أهل المغرب بفقهاء المدينة قبل لقاء أهل العراق.[28]

ملمحية التطور والتأصيل الممهدة لذيوع المنظومات وتداولها :

جلس الإمام مالك للتدريس ما بين [110 – 179 هـ]، وفي تلك الفترة الذهبية، تبلور مصطلح الفقه ليرقى من مجرّد الصياغة المقيدة، إلى صيغة الإطلاق و الشمولية، فقد كان العصر الأول نبويا راشديا، يزخر بالقرّاء، وهم الملمون بالأحكام، الحافظون للنصوص، ثم سيق إلى الحفظ الفهم والإدراك.

وقد كان الإمام مالك ﷺ معدودا من جيل تابعي التابعين الذين حافظوا على اتصال الرواية وجنّبوا الأمّة ظاهرة (الانقطاع) والانبتات عن التراثية المرجعية، والمعلوم أنّ البيئة الفقهية في الحجاز تكونت على يد الفقهاء السبعة [29] ، وعنهم أخذ مالك، غير أنه على خلافهم قام بضبط القواعد والأصول التشريعية، التي تستند عليها الأحكام، بينما كان الأمر قبله موكولا إلا الذوق اللّغوي، والسليقة الفطرية التي تدرك بالفهم الأصالي معاني الأحكام، وكان اجتهاده مطلقا بينما كان اجتهاد تلامذته مقيدًا، إذ اجتهد في الأصول فاعتبر عمل أهل المدينة حجّة، و الاستحسان ليس بحجّة، وأن سدّ الذريعة حجّة ، وأن قول الصحابي ليس بحجّة .

والفقهاء المالكية اجتهدواْ تفريعيا دون أن يخرجواْ على طريقة مالك الأصولية [30].

ومرّ المذهب بمرحلة التأصيل في المدينة، ثمّ توسع في مرحلة التفريع، لتتكون له مراكز جديدة؛ ففي العراق (القعنبي)، وفي مصر (ابن القاسم) و (أشهب) ثم (ابن وهب)، وفي تونس (علي بن زياد)، وفي القيروان (أسد بن الفرات) و في الأندلس (زياد بن عبد الرحمن شطبون)، و(يحي بن يحي الليثي) وغيرهما ...[31]

وفي منتصف القرن الثاني بدأ تدوين الفروع، مما لم يكن موجودا من قبل لتحرّج الخلفاء والعلماء من كتابة سوى القرآن، ثم من كتابة سوى الحديث بعد السماح بذلك .

وكلما زاد انتشار المذهب زاد العلماء والمؤلفون والشرّاح توسيعا للعطاء الفكري، فتسلسلت المؤلفات، وازدحمت المكتبات بموروث متنوع، فقد كتب أسد بن الفرات (مدونة) صححّها وشهّر مضمونها الفقيه سحنون، وصدر في الأندلس كتاب (الواضحة) لعبد الله بن حبيب، وظهر مختصر ابن عبد الحكم في مصر، واختصر ابن أبي زيد القيرواني المدونة ثم وضع الرسالة الشهيرة.

وفي القيروان كتب البراذعي (التهذيب)، وكتب ابن يونس (كتاب الجامع)، وكتب اللخمي القيرواني السفاقسي شرحا على المدونة سماه (التبصرة)، وظهر (الكافي) لابن عبد البر، كما ظهر بالعراق كتاب (المبسوط) للقاضي إسماعيل، وكتاب (التلقين) للقاضي عبد الوهاب.

واتسع مجال التأليف في المذهب فشرح (ابن بشير) المدوّنة بسفر سماه (التنبيه على مسائل التوجيه)، وكتب ابن رشد كتاب (المقدمات الممهّدات)، ثم كتب مؤلفا آخر سماه (البيان و التحصيل والشرح و التوجيه و التعليل)، كما كتب (القاضي عياض) شرحا على المدوّنة سماه (التنبيهات) [32]

وظهرت مرحلة جديدة حيث قام شيخ الإسلام (أبو حامد الغزالي)، وهو شافعي المذهب، بمحاولة لتجديد الفقه الإسلامي، بالاستغناء عن تماوج الفروع بلُجَجٍ من الأقاويل المختلفة، فأخذ بما هو متفق عليه ومشهور، إذ بعض الأقوال أولى أن يؤخذ بها

من بعض، لأنها مرتبة ترتيبا تقديريا تصلح فيه المفاضلة، فكتب مؤلفه الشهير (الوجيز) مقتصرا فيه على القول الواحد في المسألة.

ورأى (ابن رشد) و هو غريم الغزالي وندّه، أنّ ذلك المنهج تضييقيّ يتروي في الفكر في زاوية ضيقة، وينغلق به تكوين الفقهاء، ويتقاصر نظرهم، فتحدى الغزالي بكتابه : (بداية المجتهد و نهاية المقتصد) موسعا دائرة المقارنة والموازنة و الاستدلال إلى أقوال أئمة المذاهب الأربعة الأخرى.(33)

وظنّ الفقهاء المالكيّة أنّ تقلص المذهب المالكي بالعراق راجع إلى قصورهم عن الاختصار والاقتصار، كما فعل الغزّالي في (الوجيز)، فألف (ابن شاس): (الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة)، وظهر من بعده ابن الحاجب، فألف مختصرا جمع فيه ستين ألف مسألة سماها (جامع الأمّهات)، وذلك في قلة لفظ، ووفرة معنى، وكثرة مسائل، فجمع كتابه هذا الكثير من المسائل فأوعى، إلى أن جاء من بعده (القرافي) في مختصر سماه (الذخيرة) ليبسط و يستدل و يتوسع، ثم اختصر (ابن راشد القفصي) مجموع الكتب المختصرة في كتاب (لباب اللباب).

وفي القرن الثامن للهجرة انتفض (ابن عرفة) على هذه الطريقة على شاكلة ابن رشد من قبل، ففي الوقت الذي أنجز الشيخ (خليل) –رحمه الله– مختصره الذي يبلغ مائة ألف مسألة بين منطوق ومفهوم، أنشأ ابن عرفة منهجا جديدا سمّاه (التفقه).

ومنهج ابن عرفة هذا يعيد قراءة الفقه للنظر في الأدلة ومناقشة المسائل المتروكة للموازنة، واتخاذها سبيلا للرّياضة العقلية التي توسّع الفكر ولا تجمده، فوسّع ضيّقا، وأحيا ميّتا، كما يقول عنه تلميذه (الأبيّ).

ولكن تلاميذ ابن عرفة يقول الشيخ (الفاضل ابن عاشور) – جعلواْ من هذا التفقه فقها، إذ أدخلواْ فيه فتاواهم وأحكامهم، لا سيّما الذين تولّواْ القضاء منهم، وبرز ذلك بوضوح في الكتب المؤلفة في هذا المجال. (34)

وحين اضطربت الأوضاع في القرون اللّاحقة، وأصبح العمل بالأصول يعارض المصلحة العامة، لجأ الفقهاء للعمل (باللاتأتي) كما يسميه الزّقاق،(35) وذلك بتدوين أعمال القضاة و أحكامهم باعتبارها حلولا فقهية ملزمة .

ومع حلول القرن [11 هـ] ، ابتداء الحكم التركي في المغرب، اتجه الفقهاء والحكام إلى الأخذ بالفتوى التي عليها القضاء ، منطلقين من أصول الفقه التي صرّح الإمام الشاطبي بأنّها لون من الاجتهاد لا ينقطع.(36)

وعلى ذلك بنيت المنظومات كـ (لقط الدرر في العمل المشتهر) لقاضي تونس (ابن مهنية)، ومؤلفات الفاسي (محمد التاودي) و الشيخ (علي التسولي) .

ولقد سار الفقهاء في هذا الدرّب التيسيري للفقه ولجؤوا إلى نظم الفقه رجاء أن تكون طريقة النظم أكثر قدرة على تيسيره وتبسيطه، ولذلك فإنّ النظم قد تلوّن وتعدّد في علوم شتى، وجاء الفقه جامعا لأبوابه، من المنظومات الشهيرة التي سارت على الألسن، ووعتها الحافظة العامة للأمة مما اشتهر و انتشر، ومن ذلك ما يلي :

أ – منظومة ابن عاشر التي قال في تعظيمها والتنويه بها (أبو عبد الله محمد بن أحمد العياشي) :

عليك إذا رُمْتَ الهدى وطريقه ... وبالدين للمولى الكريم تدين

بحفظ لنظم كالجمان فصوله ... وما هو إلاّ مرشد و معين

كأن المعاني تحت ألفاظه وقد ... بدت سلسبيلا بالرياض معين
وكيف وقد أبداه فكر ابن عاشر ... إمام هدى للمشكلات يبين
تضلع من كل العلوم فما له ... شبيه ولا في المعلومات قرين
وأبرز ربات الحجال بفهمه ... فها هي أبكار لديه وعين[37]

ب – منظومة على مقدمة (ابن رشد) في الفقه ومطلعها:

قَالَ الفَقِيرُ عَابِدُ الرَّحْمَنِ ... مِنْ بَعْدِ بِاسْمِ اللهِ ذِي الإِحْسَانِ
الحَمْدُ للهِ العَظِيمِ الخَالِقِ ... البَارِئِ مِنْ غَيْرِ شَكْلٍ سَابِقِ[38]

ج – المنظومة العاصمية المسماة (تحفة الأحكام) التي يقول فيها (ابن عاصم الغرناطي):

نَظَمْتُهُ تَذْكِرَةً وَحِينَ تَمْ ... بِمَا بِهِ البَلْوَى تَعُمّ قَدْ أَلَمْ
سَمَّيْتُهُ بِتُحْفَةِ الحُكَّامِ ... مِنْ نُكَتِ العُقُودِ وَالأَحْكَامِ

د – منظومة (أبي الحسن الزقاق الفاسي) في القواعد الفقهية، ويقول فيها :

سَمَّيْتُهُ بِالمَنْهَجِ المُنْتَخَبِ ... إِلَى أُصُولِ عُزِيَتْ لِلْمَذْهَبِ
وَاللهُ يَنْفَعُ بِهِ مَنْ حَصَّلَهْ ... بِحِفْظٍ أَوْ فَهْمٍ، وَشَيْئًا عَنَّ لَه

ه – نظم الشيخ (عبد الله الغلاوي الشنقيطي) [الرسالة ابن أبي زيد]، ومنها قوله:

وَرُبَّمَا أَجَلْتُ فِيهَا النَّظَرَا إِنِّي وَرَأْنُ لَستُ فِيهَا شَاعِرَا
فَتَارَةً أَرْقُصُ مِنْ تَذْكِيرِ لابنِ نَبَاتَةَ وَ لِلْحَرِيْرِي

و – متن الرحبية (لموفق الدين أبي عبد الله الرحبي) ت [579 هـ]، ومنها قوله :

وَنَسْأَلُ اللهَ لَنَا الإِعَانَهْ فِيمَا تَوَخَّيْنَا مِنَ الإِبَانَهْ
عَنْ مَذْهَبِ الإِمَامِ زَيْدِ الفَرَضِي إِذْ كَانَ ذَاكَ مِنْ أَهَمِ الغَرَضِ

ز – نظم العزية (لابن باد) و هو نظم للرسالة يقول فيه :

فَصُغْتُهُ لَفْظًا جَعَلْتُهُ حُلَى لِطَالِبِي العِلْمِ وَكَنْزاً لِلْمَلاَ
فَجَاءَ نَظْمًا حَسَنًا بِهِ اقْتَنَا عِلْمَ الدِّيَانَةِ لِمَنْ بِهِ اعْتَنَى

ح – الأرجوزة البكرية للعلامة (محمد البكري التنلاني):

بَوَّبْتُهَا فِي نَظْمِهَا أَبوَابَا ظَمًا أَثْبَتُ بِهِ الأَلْبَابَا
جَنَحْتُ لِلإِيجَازِ لاَ الإِسْهَابِ خَوْفَ السَّآمَةِ عَلَى الطُلاَبِ

ط – منظومة (الجواهر الكنزية) لشيخ باي، ومطلعها:

قَالَ مُحَمَّدُ بَايْ عُرِفَا الحَمْدُ للهِ العَظِيمِ وَكَفَى
لَسْنَا وَإِنْ حَمِدْنَا رَبِّ نُحْصِي ثَنَاءَنَا عَلَى العَظِيمِ المُحْصِي

ي- وقد لخصّ العلاّمة الليبي (محمد مفتاح قريو) كتاب [أقرب المسالك] في نظم سماه (جواهر الفقه المختارة، من أقرب المسالك الحسن العبارة) منها قوله مفتتحا لها وقد بلغت ثلاثة آلاف بيت :

يَقُول عبد ربّه المنّـــان محمّد قريو الرضوانـــي
نَظَمْتُ بِسْـــمِ اللهِ ذي الجَـــلاَلِ مُصَلِّيًا عَلَى النَّبـــي وَالآلِ
جَوَاهِرَ الفِقْه الذي قَدْ نُسِبَـا لِمَـــالِك وَتَابِعِيْه مَذْهَبَـا
لأَجْلِ أَنْ أُسَهِّلَ الحِفْظَ بِـــه لِلرَّاغِبِيـــنَ العِلْمَ مِنْ طُلاَبِه
فَالنَّظْـــمُ قَدْ أَصْبَحَ سَهْلَ الحِفْظِ لاَسِيَّمَـــا إِنْ كَانَ عَذْبَ اللَّفْظِ

ونظرا لهذا التعليل الأخير لدوافع النظم، وهو توخي التسهيل، وتيسير الحفظ، إذا عذُبت العبارة، ورقت الإشارة، وحسن اللّفظ، وجمل المعنى، وانتقيت أطايب الكلام، فقد آليت على نفسي أن أسهم في هذا المضمار بمنظومة ناجعة، تكون للشبيبة الراغبة نافعة، فكانت نموذجا لهذا التيسير المتوخى عبر العصور والذي برز في المنظومات المقدمة من أكابر الفقهاء وأرباب المواهب.

الألفية الفقهية الجديدة بين المضمون و الوظيفية:

أ – دواعي تأليف هذه الألفية :

1- الارتباط بموضوع الفقه كاهتمام ثقافي عقائدي ملزم لمعرفة الله وعبادته على هدى وبصيرة.

2- التذوّق السّليقي للشعر عمومًا وللنظم خاصة.

3- تشبّع بمعطيات النظم الفقهي باعتباره مجهودا أصالياً لقرائح العلماء، و إنتاجات الفقهاء .

4- ما يقتضيه العصر من تلخيص و تقليص، وما يرتضيه الذوق المعاصر من تنغيم وتشويق يكون مدعاة للتأصيل و التحصيل .

5- الجمع بين الاختصار والإبانة، بتيسير ما جرى عليه في الجزائر أمثال عبد الرحمن الوغليسي البجائي ت [786 هـ] في منظومته (الجامعة) ، وما فعله الشيخ أحمد بن القاسم البوني ت[1139 هـ]

في نظمه مختصر خليل في عشرة آلاف بيت، أو نظم المختصر ذاته في 8 آلاف بيت للشيخ بن حسن القماري .

6- ضمان وسيلة مثلى للحفظ السريع عند الطالب المعاصر الذي أحاطت به المغريات من كل جانب، وطوقته الجاذبيات من كلّ ناحية، مما ركن به إلى الأرض، فانزلق في اتباع الهوى على غير بصيرة ولا هداية.

7- توخي الربط بين المعلومة الصحيحة، و الأحكام المحصّة، مما هو مشهور في المذهب، بأسلوب بسيط سلس، يروق للحفظ، ويُيسّر الفهم، ويشوق للاستزادة.

8- الربط بهذا النمط في النظم بين الأصالة والمعاصرة، في مفهومها الفعال والإيجابي .

9- الإسهام المتواضع في بعث الحركة الثقافية، وإشعال شمعة عوضا عن الانغماس في لعن الظلام.

10- الأمل في تثمير أجر الدنيا، وابتغاء فضل الله في أجر الآخرة لقوله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ب- ملاحظات حول منهجية نظمها :

1- لم يكن القصد معقودا في البدء على وضع المنظومة بغاية أن تنشر، ولكنّها انقداح إبداعي لمجموعة أبيات افتتحت بها حمدًا و ثناءًا على المصطفى كنفحة من نفحات الخير واردة في ساعة صفاء.

الحمد لله ابتـــداء القصد بمنتهى الشـــكر له والحمد

فهو الذي أعطـــى جميع خلقه ولم يؤخر أحـــــدا عن عفوه

ثـم الصلاة دائمـــا و أبدا على النبـــي الهاشمـــي أحمدا

فإنه سرّ الإله الخـــاتم تحفه الأنوار و المكـــارم

ويرفض الديـــن بغير نهجه مثنيـــا بآله وصحبه

ثم ما لبثت أن تخمّرت الفكرة، فشرعت أتصور خطة للمنظومة، ففتح الله ببقية النظم فاستكملته بالتدريج في مختلف أبواب الفقه، وفي فترات زمنية متقطعة، وتشاء الظروف أن أتشرف بلقيا الشيخ عبد الرحمن شيبان، والشيخ (علي المغربي)، اللذين استحسنا الفكرة وشجعاها، وطلبا بلورتها وتجسيدها في صورتها النهائية للنشر ، وكذا الشيخ أحمد قصيبة الذي تفاعل معها ورآها بادرة مباركة في الوطن الجزائري في هذا المجال.

ويشهد الله أنّني تردّدت في نشرها كثيرا حتى جمعتني الظروف بالشيخ باي بلعالم، وهو صاحب التآليف الزاخرة و المبادرات الآسرة في فقه الإمام مالك وفي مختلف العلوم، فزكى العمل وتبناه وقرظه.

ومن ذلك قوله في قصيدته التقريظية:

تقرب الأقصى بلفظ رائق ... وتظهر الفهم بمعنى فائق

وتقتضي حبا بدون بغض ... فهي لكل الفقهاء ترضي

ففيها ما النفوس تشتهيه ... وفيها ما الأذواق ترتضيه

وهي كمثل الشهد في المذاق ... وهي لمرضى الجهل خير راق

قرت بها عين الشيوخ وانجلى ... بها عن الشباب ما قد أشكلا

وبان للكهول فيها بدرُ ... وشقّ للغواص فيها بحرُ[39]

وعلى نفس الشاكلة كان الدكتور قسوم، والدكتور محمد شريف قاهر ، والشيخ محمد الهادي الحسني ، والشيخ محمد الزاوي، والشيخ الأطرش السّنوسي، والدكتور أحمد بن نعمان، والدكتور محمّد عيسى وغيرهم...

فوجدت إجماعا على استحسان المبادرة لم أملك معه إلاّ أن أستخير الله وأبادر بتسليمها للنشر.

2- أما من حيث المنهجية فقد توخيت في نظمها الجمع بين العقائد والعبادات و المعاملات، أخذا بما كان عليه السلف الصالح من اعتماد العقيدة ممهدة للعبادات

وغيرها باعتبارها مبحثا أصاليا مهما لا يستغني عنه في التمهيد للفقه ، وصدق الفقيه القائل :

أيُّهَا المُعْتَدِي لِتَطْلُبَ عِلْمَ كُلُّ عِلْمٍ عبد لِعِلْمِ الكَلاَمِ
تَطْلُبُ العِلْمَ كَيْ تُصَحِّحَ حُكْمًا ثُمَّ أَغْفَلْتَ مُنْزِلَ الأَحْكَامِ

وللحديث الوارد في شرح الأقدمين : « قال رجل للنبي ﷺ علمني غرائب العلم؟ فقال : وما فعلت في رأس العلم حتى تطلب غرائبه ؟ قال : وما رأس العلم ؟ قال : أعرفت الربّ ؟ قال : نعم . قال: فما فعلت في حقه عليك ؟ قال : ما شاء الله . قال عرفت الموت؟ قال : نعم . قال : ما أعددت لها؟ قال : ما شاء الله . قال : انطلق فاحكم ما هاهنا فإذا أحكمته فتعال أعلمك غرائب العلم ».(40)

3- كان مفتتح المنظومة سائرا على منهجية الإمام سحنون التنوخي في (المدونة) حيث سلك المنهج القرآني في البدء بالوضوء، على خلاف صاحب الرسالة الذي بدأ بالنواقض ثمّ سلسنا مباحث الطهارة ، فالصّلاة وما يتعلق بها ، فالزكاة، فالصوم، فالحج، ثم عرضنا لمختلف المباحث الخاصة بالمعاملات، وهو منهج تدريجي بسيط يشوق صاحبه ولا يصدمه.

لقد كان التمهيد لمبحث الوضوء الآنف الذكر بأركان الإسلام الخمسة، باعتبار باقي الأبواب تفصيلا للمضامين المختصة فيها، وهو لون من السير على منهجيّة الانتقال من العام إلى الخاص، و من الكليات إلى الأجزاء في صورة منهج الاستقراء الذي نتوخاه عموماً.

4- اعتمدت بحر الرجز لكونها أرجوزة، وذلك لسهولته ويسره وطاوعيته لهذا النظم، ولقد حاولت ما أمكن أن أضبط مراميه ومبانيه العروضية ما سنحت بذلك الفرصة إلا ما شذ، خاصة وأن الصعوبة في باب الزكاة في المقادير المخرجة من حسابات المقدار في المال والأنعام، وقد حاولت تقريبها وتدقيقها ، وذلك بارز في النص على ذلك في المنظومة في مثل ما ورد في باب الزكاة من ذلك ما يلي :

حيـــــن بلوغ خمسة من أوســق وفصّلوا حكـم زكـاة ما سقي

بآلة يخرج نصـــــف العشر وعشر لما سقـــــي بالمطر

أو مثل قوله في نفس الباب :

وحدّدوا في كل خمسة جمـــال إخراج شـــاة وسط على التوال

وإن تصل بعد العشرين خمســـا فانقل إلى النوق العتـــاق الجنسا

مؤديا بنت مخـــاض للفقير ومحصيـــا ما زاد بعد من بعير

في ستة مع الثلاثين يكـــون إخراج ما سموه بابنة اللبـــــون

5- حاولت أن أتجنب المصطلحات المعقدّة التي لا تنفع المبتدئ ولا تشوقه إلاّ ما لا يمكن الاستغناء عنه كمصطلح "الوقص" في الزكاة، أو مسميات أبواب المعاملات، كالفلس والحجر والإيلاء، أو بعض أسماء الأماكن ، كما في الحج مثل شاذوران وبطن عرفة ، والمأزمين، ووادي النار، وغيرها، وكثيرا ما أوردت شرح اللفظ الغريب أو

الشاذ مما يقتضيه السياق في هامش المنظومة حتى لا يلتبس على القارئ أو يعوقه على الفهم .

6- اعتمدت في النظم بساطة اللفظ، وجمال التركيب، وحسن التشبيه، وسلاسة المدلول، مما عبر عنه الشيخ عبد الرحمان شيبان بقوله : « أما أسلوب المنظومة فأدبي يمتاز بالوضوح و الخفة و الحكمة والإشارة الرشيقة، والاقتباس الحلو الجميل ..».(41)

7- اعتمدت السّهل الممتنع بحيث يؤدّي المعنى بأقرب لفظ وأيسر عبارة ويكون واضحا مستوعبا مجليّا للفكرة بلا عناء، وهذا بارز بوضوح في المنظومة ، ومن ذلك :

إذا الإمـــام قدم المعيدا فواجب عليه أن يعيـــدا

فإنْ أقـــام راتب فليتبع والخلف للإمـــام طعنه فَعِ

يَخْرُجُ فَوْرَا سُنَّةٍ وطـــاعه من سبّق الصّلاة في جمـــاعه

8- اعتماد مبدإ الاقتباس من القرآن و السنة، كمحك مرجعي أصيل :

أ – الاقتباس من القرآن :

وأجمع الماضـــون أن الجمعهْ فـريضـة لازمـة متبعـهْ

يرِدهـــا المولى بقول معجز فيمـا بدا من السيـــاق الموجز

من قوله:(فاسعواْ إليهـا وذروا) وقوله : (إذا نقضت فانتـــشرواْ)

وقوله:

ومتوفّى زوجهـــا عدّتها أربعة وعشرة تكمله

أو:

وإن تطلق النساء قبل المساس فما لهنّ عدّة من الأســـــاس

أو:

لأمره جلّ علاه المستبيـــــن وكـــــسوة فإن يغب فوارثه

ورزقها على الأب المولود لـــــه أن ترضع الأم الحولين كاملين

أو:

وإن يكن بمتعة مبـــــاشرا أو قارنـــا فليذبحن ما استيسرا

ب – **الاقتباس من السنّة:**

كالإشارة إلى حديث « تجديد الوضوء على الوضوء نور على نور».

إن الوضوء محور العبـــــادهْ ونقضه يستلزم الإعـــادهْ

وهو بترك مـــائه ليس يجوزْ (ومكثر منه على الفضـل يحوزْ

ج – **وفي باب الصوم:**

ويندب التعجيل للإفطـــار مطبقا لأوثق الأخبـــار

مؤخرا لسنّـــة السّحور لما أتى في نصّه المأثـــورِ

وفي باب الحج:

وإنْ أردت الحجّ فاجح لاتباع ... مناسك النبي في حج الوداعْ
لقوله في خطبته الحجّ خذوا ... عنّي المناسك لعلي أوخذ

د – وفي باب الشركة :

وجاز الاشتراك في اتجار ... بالصّدق والثقة والإيثار
إذْ واردٌ أنّ الإله الثالث ... ما لم يخن مشترك أو ينكث

9– التأكيد على حكمة الأحكام ومقاصد الشريعة كلما سنحت الفرصة :

أ – في الوضوء :

واشرع من اليمين واذكر السواك ... واحذر من المولى فإنّه يراك

ب– في قضاء الفوائت:

وواجب على من فاته الأدا ... أن يستعيض فوت ذاك بالقضا
فليقضها بمثل ما كان عليه ... إذ ربّما يختاره الله إليه
فَيَنْدَمَنْ وَلاَتَ حين مندم ... وليس من يضيعها بمسلم

ج – في صلاة الجنازة:

أربعُ تكبرات من غير سجود ... وليس فيه من ركوع أو قعود
مكثّر الدعا لساكني القبور ... مؤمّلا شفاعة يوم النشورْ

وماشيـــا بين القبور في أدب وفي خشوع واعتبـــار ورهبْ
كفعل مولانـا الرسول في الأثر ولتأخذن من المقـــابر العبرْ

10- الإشارة إلى الخلاف الفقهي في المسألة الواحدة إذا كان له مدعاة، وكان يخدم النصّ ويقرب الفهم ويجليّه ، من ذلك :

د – في مكروهات الصلاة:

وكرهـــوا تعوذا والبسمله على خلاف ظـاهر في المسأله

ه – النكاح:

شرط الولي ستة مشهـــورة وَمَزِيدَ عَقْل راجح كمـــالا
الإسلام والبلوغ و الذكـــورة الإسلام والبلـــوغ و الذكورة
وعدم الإحرام و الحـــرّية وعدم الإكـــراه للصبيّة
وعدم الإكـــراه للصبيّـــة كما رواه صـاحب (الرساله)

11- التلميح لبعض ما استحدث في عصرنا من طوارئ الحياة المرتبطة بالفتوى، وخلاف الفقهاء، كمسألة الرّبا وما عليه الجمهور من رأي ثابت، مع محاولة البعض المسايرة للعصر من تَرَخُص وانفتاح:

وأدخلوا مع الربا قرض البنـــوك مع اختلاف الناس فيه و الشكـوك
وكلّ ســـلفة تجر منفعه مما أتـــى في السنة المتبعه

من وصفه بأنه مثـــل الدخن يضـــايق المؤمن آخر الزمن

ولم يزل إبليس يغريـــــه به حتـــــى ينال قطعة من نـاره

فإن ينل من الربـــــا قليلا مرام المزيد وامتطـــى التأويلا

فمحق الله الربا وأربـــى صدقة لحسن فطوبـــى

لقابضين ديـــنهم رغم الخلاف وقانعين بالحلال والكفـــاف

12- اعتمدنا جملة من المصّادر والمراجع في مذهب إمام دار الهجرة أوردناها في ثبت آخر الكتاب:

- كشرح مختصر خليل .
- شروح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني .
- شرح التحفّة في أحكام القضاء للتسولي .
- وشرح الدردير الموسوم بالشرح الصغير.
- والميارة على ابن عاشر .
- وموسوعة الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي .
- فتاوى الشيخ أحمد حماني .

ومما لم نثبته مما استفدنا به ضمنا أو و وازنا في الحكم الفقهي فيه مع غيره ورجحنا على ضوء ما تركه العلماء من آراء حتى لا تكون فتنة و يكون المقصد من المسألة بارزا جليا :

- فتاوى الشيخ عليش .
- السبائك الإبريزية + المباحث الفكرية في شرح الجواهر الكترية على البكرية للشيخ محمد باي بلعالم .
- الخلاصة الفقهية ← لمحمد العربي القروي .
- الميزان ← للشعراني .
- بداية المجتهد و نهاية المقتصد ← لابن رشد .
- القوانين الفقهية ← لابن جزي .
- المعونة ← للقاضي عبد الوهاب
- الإشراف على مسائل الخلاف له أيضا.

13- حاولنا أن نجمع بين الملمح النظري و التطبيقي فيما يكثر العمل به كالوضوء، والغسل، والتيمم، والحج، وغيرها، وهي الأبواب التي أطال الفقهاء فيها وغاصوا في فروعها وأحكامها، من ذلك في التيمم بعد تعريفه وذكر فرائضه وسننه و نواقضه :

وهـــاك فاعلم صفة التيمم ... ابدأ بقصد و الصعيـــد يمّم

اضرب عليه أولا للوجـــه ... وثانيا للمرفقيـــن تنهي

مستوعبـــا جميعه في ضربتك ... وداخلا بفوره لطـــاعتك

لأنه الأدرى بمـــا شَرَعَ لك ... وهو العليم بالذي يصلح لك[42]

14- جمع الأحكام الفقهية في المسألة، والتأكيد على بعض السّنن الشهيرة والترغيب فيها، مع التوجيه التربوي إذا أمكن كما في (العقيقة) :

وندبوا عقيقة للقـــــادر فأدها بسابع وبـــــادر
بالسعي لإختيار شـــاة مرضية في السّن و الإجزاء مثل الأضحية
بضحوة مبادرا لذبحهـــــا وآكلا ومنفقا للحمهـــا
محلّقا شعر الوليـــــد النجب ومنفقـــــا زنته من ذهب
مخيرا له اسمه المشرفـــا وأن يقيه ربه ويلطفـــا
فيستقيـــم أمره عند الكبر ليعبد الربّ وينفـــع البشر (43)

15- لقد اقترح علينا صديقنا الدكتور (محمد عيسى) أستاذ القواعد الفقهية بمعهد أصول الدين بالجزائر ومدير الإرشاد الديني بوزارة الأوقاف ، شفع هذه المنظومة مستقبلا بشرح موجز يشار فيه إلى تعليلات فقهاء المذهب واستدلالاتهم من الكتاب والسنة كأمر محبّذ مرغوب فيه، ونحن نشاطره الرأي، ولذلك فقد استوفيناه شرحا وتحليلا و تعليلا ، ونسأل الله أن يوفقنا لنشره مستقبلا، وما ذلك على الله بعزيز .

وأخير أستخلص ما يلي :

أنّني دائما أتمثل بقول أبي العتاهية :

إلـــــهي لا تعذبني فإني مقر بالذي قد كـــــان مني
فما لي حيلة إلاّ رجـــائي لعفوك إن عفوت وحســـن ظني

إلى قوله :

يظن النـــاس بي خيرا وإني لشر الناس إن لم تعف عني

وقد أكدت هذا في أكثر من موقف وقصيدة، كقولي في الذكرى المائوية للشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي، وقد واكبت هذه الذكرى بعض الأحداث المؤلمة سنة 1997م؛ فقلت :

كم خطايا سجلت في صحفي ولكم سطر لي من مغرم

ولكم زاغت بنفسي رغبة ولكم زل فمي في كلمي

ولكم طاف بعقلي طـــائف ولكم سوّل لي من مأثـــم

غير أنّ الفضـــــل لله فلا أحد يسأله ذا بـــكم ؟

ربما يمحو خطايـــــاي التي عكّرت صفوي وأعيت حلمي

ربما بالحب أغدو راضيـــا واردا حوض النبي

صفوة الدنيا وعنوان الرجـا الخـــــاتم

من ينل منه الرضا لم يندم[44]

أ – أنني لا أدّعي فقها، ولا أتطاول إلى فهم ولا إدراك، لأنني على يقين بأنّ زادي قليل في كل مبحث وعلم، وبضاعتي مزجاة، ولكنني مستأنس بالمحبة والإقتداء، أمل في الرجاء وحسن الظنّ بالله.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ب- أنّ هذه المنظومة أعتبرها صدقة جارية، أرجو بها الله لعلّها تنافح عني في المحشر وتؤنسني في الموئل ، فأنال بها غفرانا ورضوانا، وأنا لا أرجو بها شهرة ولا سمعة إذ ما عند الله خير وأبقى ...

ج - أن الفقه علم جليل لابد من معرفة أثيرة به، وجدير بنا أن نهيئ لأبنائنا المناخ الفقهي الذي يتشبعون فيه بالعطاء الموروث تما عند العلماء الأجلاء في كلّ عصر و مصر.

د - والخلاصة لذلك مضمنّة بوضوح في أبيات الخاتمة و هي كالتالي :

وقد نظمت هذه الأرجوزه مرجيا في العمر أن أحوزا
تجاوزا عن كلّ ذنب بدرا ورحمة وجنة ومغفره
مؤملا من كل من قرأها أن يدعو الله لمن نظمها
بمنحه عاقبة ميسرة فإنّه ولطفه به إذا ما عثرا
يكن قصير باع مستأنس بالاقتدا والاتباع
وحامد بكلّه للمولى فكم أفاض أنعما وأولى[45]

إلى أن يقول بعد أن يذكر أصحاب المنظومات الشهيرة كنظم (سراج السالك) ، ونظم (مقدمة ابن رشد) ومنظومة (ابن عاشر) في الفقه ، ومنظومة (الرحبيّ) في

الفرائض، والتي يقول الناظم فيه منوها بهؤلاء الأعلام ذوي الهمة العالية، والإرادة العاتية مما وحد الأمة واقعا ومصيرا.

فقد أفادوا بالبيـــــان الأمة وانتشر النفع بهـم وعمـــا
بجبهـم يا صاح نلت قربـــا ويلحق المرء بمن أحبـــا
وهذه بنظمها ألفيـــــه هـــــادية لنشئنا مهديه [46]

الخاتـــمة :

إن المنظومات التي تعج بها كتب الفقه، وقد فعلت فعل السحر في جذب القلوب، وترويض الأذواق على التمرس اللغوي، والتطبيق الألسني، والارتباط المكين بالفقه، وتوظيف التشطير العروضي، والإيقاع الموسيقي، في استذكار المعلومات المتزاحمة، والفروع المتداخلة، وحصر المسائل الكثيرة في العبارات البليغة الأثيرة التي تعجب الحافظ، وتدهش السامع وتأسره.

ولن تكون هناك جدوى لدعوى البعض بأن المنظومات قد أكل الدهر عليها وشرب، وطوتها الأيام في تلافيف النسيان، وأصبح الإنسان الآن غير الإنسان، وقد ازدحمت الساحة العلمية بالآلات المسعفة، والتقنيات المستحدثة، حيث تأتي المعلومة للباحث قبل أن يرتد إليه طرفه؛ ويقارنها ويؤصل عليها و يؤثل قبل أن يقوم من مقامه، في دقة و إحاطة منقطعة النظير .

ولكن النظرة هنا للمنظومات ليست قابعة على ما نألفه في حواشي القديم من غرابة وشذوذ، أو تحذلق أو تكلّف، بل يفترض أن تماشى المنظومات للزمان، لا تقنع بالعيش عيش الحجر، ..

جميل أن نتصوّر المنظومة وسيلة من وسائل الإيضاح و التحبيب، وطريقة من طرائق التشويق والترغيب، ولا مانع أن تكون أراجيز مختصرة، أو مقطوعات متناثرة، أو تعبيرا شعريا مقتضبا، عن حكم من الأحكام، أو رأي من الآراء، أو تلخيصا مركزًا لخلاف الفقهاء في مسألة من المسائل المطروحة، أو القضايا المستحدثة، ونحن لا نفتأ نذكّر بالأهمية التي اكتستها منهجية المنظومات في التأصيل و التأثيل، وفي حفظ الفقه المالكي، والترسيخ المزدوج الذي طال الملكة الذوقية، و القدرة العلمية على حد سواء، وربما كان النظم غير كاف للفهم والإحاطة بالمسائل، وعليه فلا مانع أن تذيّل المنظومات القصار والطوال، بتحقيقات وأنظار، وأن تربط بالأدلة الشرعية، و التقريرات الأصولية، إذ غاية العلم الإبلاغ والإفهام، ودفع ما استشكل من القضايا والأحكام بالحجة البالغة، والعبارة الواضحة الرائقة، قال (الإمام الشاطبي) –رحمه الله– : «كثيرا ما كنت أسمع الأستاذ أبا علي الزواوي يقول : قال بعض العقلاء لا يسمّى العالم بعلم ما عالما بذلك العلم على الإطلاق، حتى يتوفر على أربعة شروط ، أحدها : أن يكون قد أحاط معرفة بأصول ذلك العلم على الكمال، والثاني أن يكون له قدرة على العبارة على ذلك العلم، والثالث : أن يكون عارفا بما يلزم عنه ، والرابع : أن يكون له قدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم».[47]

وستبقى المبادرة بالمنظومات مهما طالت أو قصرت ، إذا ما روعي فيها التبسيط و التشويق وسيلة لحفظ التراث، وربط الأجيال به، دونما إغفال للبحث، أو تقزيم لدور العقل والتأمل الواعي، خاصة ونحن في حاجة لكل وسيلة لمواجهة المدّ التغريبي

الانسلاخي، أخذا بناصية الواقع الكاذبة الخاطئة، لتصحيح الرؤى، وتأصيل القيم، وترسيخ المبادئ و الثوابت.

نسأل الله أن يوفق هذا الملتقى للتحلية و الترقية، وأن يكون مؤتيا أكله كل حين بإذن ربه، في ظل هذا الصرح العلمي الوارف، والذي نرجو له أن يبقى في رباطه محافظا على الفقه والدين والشريعة.

و الله الموفق للسداد، وعليه وحده الاتكال و الاعتماد .

و السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته .

الهوامش

1- إشارة لقوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف/109]

2- انظر "الإجتهاد" . للشيخ يوسف القرضاوي. طبعة المؤسسة اتحاد المغرب العربي – البليدة .

3- هذا الكتاب للعلامة محب الله بن عبد الشكور، مطبوع على حاشية "المستصفى" للغزالي.

4- محاضرة ألقيت في الذكرى المئوية لوفاة شيخ زاوية الهامل القاسمية . أوت 1997.

5- مقتبسة من الحديث عن بني إسرائيل في سورة الأعراف الآية : 169.

6- انظر : موسوعة الفقه الإسلامي . الصادرة عن مجلس الشؤون الإسلامية الأعلى، بالقاهرة، مصر، ج1 (المقدمة) .

7- المرجع نفسه . ج1/27.

8- ج1 . ص : 27.

9- سورة التوبة /122.

10- (أخلاص الناوي في إرشاد الغاوي) . ج1/ 27

11- البيضاوي . (أنوار التنزيل في أسرار التأويل) . مؤسسة شعبان . بيروت – لبنان . ج3/84.

12- موسوعة الفقه الإسلامي . . صادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة . ط1990. طبع القاهرة – بيروت . ج1/19.

13- انظر : (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) . لمحمد صالح موسى حسيني . تقديم محمد سعيد رمضان البوطي. ط1. 1979 . دار طلاس .دمشق. ص53

14- محمد أبو زهرة . مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية، دار الفكر العربي، مصر ، ط2. 1952. ص/81.

15- انظر كتاب : (مالك تجارب حياة) للأستاذ أمين الخولي . المؤسسة المصرية للطباعة و النشر . القاهرة . ص : 249.

16- انظر موسوعة الفقه الإسلامي و أدلته . د. وهبة الزحيلي . . ط دار الفكر . دمشق (1989) . ج1/31 – 37

17- انظر : محمد أبو زهرة . (مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية) . ص/78.

18- نفسه . ص/44.

19- نفسه . ص/77.

20- رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعا . ج2/299، والحميدي في مسنده والحاكم في المستدرك.ج1/91. وابن عبد البر في التمهيد : ج1/65.

21- ابن عبد البرّ .(التمهيد) . تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت. لبنان . ط1. 1999. ج/61.

22- المحاضرات المغربيات . لمحمد الفاضل بن عاشور ط . الدار التونسية للنشر . وشركة النشر و التوزيع. 1974م. ص : 116 وبعدها

23- المرجع نفسه : ص/116.

24- شمس الدين الراعي ، انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك ن تحقيق محمد أبو الأجفان، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان– ط1/1981، ص:245 .

25- ارجع إلى كتاب لطفي الخولي (مالك) ، ص : 407 و ما بعدها .

26- انظر (فجر الإسلام) لأحمد أمين ، ط10 – 1965 . مكتبة النهضة المصرية – القاهرة . ص.222

27- محمد أبو زهرة ، (مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية). ص/343.

28- المرجع نفسه ، ص: 343.

29- فقهاء المدينة السبعة هم : 1. سعيد بن المسيّب 2. عروة بن الزبير 3. القاسم بن محمّد 4. خارجة بن زيد 5. أبو بكر بن عبد الرحمن بن حارث 6. خارجة بن زيد 7. عبد الله بن عبد الله بن غثة بن مسعود.

30- الفاضل بن عاشور ، (المحاضرات المغربيات) ، ص : 75.

31- المرجع نفسه ، ص : 75 و ما بعدها .

32- المرجع السابق نفسه ، ص : 82 .

33- انظر : (تاريخ الفلسفة العربية)، لجميل صليب حول الإمام الغزالي، وكذلك بداية المجتهد ، ابن رشد الحفيد.

34- برز ذلك في شرح ابن ناجي على المدونة و على مختصر ابن الحاجب، وعليه درج يحي المغيدي مفتي مزونة في كتابه (الدرر المكنونة في نوادر مزونة)، ونحا نحوه الونشريسي صاحب المعيار ن وهو نوع من تطبيق الأحكام على الواقع .

35- يقول الزّقاق :

وفي البلدة الغراء فاس وربنا بقي أهلها من كلّ سوء تفضّلا
جرى عمل باللاتأتي كما جرى بأندلس في البعض منها مؤصلا

36- انظر محاضرات الشيخ عبد الرحمن الجيلالي .(أصالة الإمام الشاطبي بالمغرب). مجلة الموافقات. عدد 01 . ص : 107. سنة 1412هـ/1992م

37- محمد بن أحمد ميارة الدر الثمين والمورد المعين . دار الفكر بيروت . ص/04.

38- محمد بن أحمد ميارة الدر الثمين والمورد المعين . دار الفكر بيروت . ص/04.

39- انظر الألفية الفقهية . ص/ 22

40- لمن نجد هذا الحديث في الصحاح باستثناء ما ورد في مسند أحمد : ويقولون ما أكذب الغرائب ، ج307/1.

41- الألفية الفقهية . ص/21.

42- الألفية الفقهية ، ص/36.

43- المرجع السابق نفسه ، ص/73.

44- القصيدة ألقيت في ملتقى بمناسبة الذكرى المئوية للشيخ محمد بن ابي القاسم عام 1997 بزاوية الهامل – العامرة بالجزائر .

45- المرجع السابق نفسه ، ص/104

46- المرجع السابق نفسه . ص/105

47- الراعي الأندلسي . (انتصار الفقير السالك). ص/38